اللحن الكتابيّ

هو ضربٌ من لحن القول وهو ان يقول القائل كلاماً يشير فيهِ الى غرضهِ اشارةً خفية بحيث يفهمهُ المخاطَب دون غيرهِ. قال الشاعر

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا واللحنُ يفهمهُ ذوو الألبابِ

الا ان اللحن الكتابيّ يكون بالخطّ دون اللفظ وهو ان يُكتَب الكلام في صورةٍ مبهمة على اصطلاحٍ مخصوص بين الكاتب والمكتوب اليهِ بحيث لا يفهمهُ غيرهما. ويُعرَف في اللغات الاوربية بالكرپتُوغرافية اي الكتابة الخفيّة ويسمى ايضاً بالپُوليغرافية اي كتابة اسرار المملكة. وهذا الفن قديمٌ جدًّا كان معروفاً عند اهل اسبرطة وكانوا يستعملونهُ في مكاتبة قوّادهم ايام الحرب حتى اذا وقعت الكتابة في ايدي العدوّ لا يفهم ما فيها. وكانت طريقتهم فيهِ ان يتخذوا مِخصَرتَين اي عَصَوين قصيرتين مستويتي الغلظ والطول احداهما تكون عند القائد والاخرى في خزانة سجلات المملكة فاذا ارادوا ان يبلّغوا القائد امراً اخذ الكتّاب مخصرتهم ولفّوا عليها سيراً من جلد لفًّا لولبيًّا يبتدئ من احد طرفيها وكتبوا عليهِ ما شآءوا اسطراً مؤازيةً لطول المخصرة من الطرف الى الطرف ثم يحلّون السير ويرسلونهُ. وهو على صورتهِ تلك اذا نظر اليهِ الناظر لا يرى الا كلماتٍ ناقصة لا يفهم منها معنى فاذا انتهى الى القائد لفّهُ على المخصرة التي عندهُ وقرأ الاسطر كما كُتبت. وكان قيصر واوغسطس يستخدمان طريقةً اخرى في مكاتباتهما السرّية فكان قيصر يضع مكان كل حرفٍ الحرف الثالث مما يليهِ في ترتيب حروف الهجآء فيعبّر عن الالف مثلاً بالتآء وعن البآء بالثآء وهلمَّ جرًّا.

واصطلح اوغسطس على الثواني فكان يعبّر عن الالف بالبآء وعن البآء بالتآء وهكذا الى آخر الحروف . وقد تفننوا بعد ذلك في هذه الكتابة على انحآءٍ شتى الى ان اصطلحوا في القرن الخامس عشر وما يليهِ على الكتابة بالارقام ولا يزال هـذا الاصطلاح جارياً الى اليوم . وربما دفع الحرص بعض الكبرآء الى الجمع بين الارقام والحروف على اصطلاح تنحصر معرفتهُ بين المتكاتبين كما كان يفعل ريشليُّو . وكان الكُنت ڤرجّنّ لعهد لويس السادس عشر يستخدم الحروف الهجآئية نفسها فيكتب غير ما يريدهُ لكن يدلّ على المراد بلون الصحيفة وشكلها وربما زاد على ذلك نقوشاً هي في ظاهرها زينة ولكنها في الباطن ذات معنى

اما الكتابة السرّية المستعملة اليوم فذات طرائق مختلفة فمنها ما يكون بعلاماتٍ يُتواطأ عليهـا بين المتراسلَين من حروف وارقام ونُقَط وخطوط وغير ذلك وهو الاكثر. ومنها ما يكون بكلمات وجُمَل يراد بها عكس معناها وربما أُدخِل بينها كلماتٌ لا معنى لهـا بقصد التعمية . ومنهم من يعبّر عن الحروف بأرقام تتبدل للحرف الواحد حتى اذا عُرِف بعضها في بعض الكلمات التبس في غيرها فلا يمكن حلهـا . ولهذه الاصطلاحات نوعٌ من المعجمات يشيرون فيهِ الى الكلم المستعملة في غير معانيها فيسردون الالفاظ المصطلح عليها ويفسرونها بمـا اريد بها من الالفاظ الوضعية ثم يسردون الالفاظ الوضعية ويجعلون بازآء كلٍّ منهـا اللفظة الاصطلاحية . وكذلك يفعلون في الحروف والارقام وهي تكون ذات مفتـاحين احدهما يدل على الرقم الذي يراد بهِ دائماً حرفٌ بعينهِ والآخر يدل على الارقام التي يختلف

الحرف المراد بها بين كلمةٍ واخرى

وهناك نوعٌ آخر من الكتابة السرّية سهل الاستعمال . تؤخذ قطعةٌ من المقوّى تسمَّى بالشبكة تخرَّم فيها مواضع الاسطر تخريماً متفرقاً على طول السطر وعند الكتابة توضع على الورق ويُكتَب ما يراد في مواضع التخريم وبعد ذلك تُرفَع الشبكة عن الورقة وتُملأ فيها مواضع التخريج اي الفُسَح التي لا كتابة فيها بكلماتٍ أُخَر يمكن ان يكون لها مع الكلمات الاولى معنى من المعاني بحيث لا يُشكّ ان الكتابة الاولى والثانية عبارة واحدة . فاذا انتهت الرسالة الى المرسل اليهِ وضع على الورقة شبكة مثل الشبكة المذكورة وقرأ الكتابة المقصودة . وتُستعمَل هذه الشبكة على طريقة اخرى وهي انها تُقطَع مربّعةً وتخرَّم على ترتيبٍ مخصوص بحيث انهُ كيفما وُضِعت يكون التخريم موافقاً للاسطر عينها لكن تكون مواضع الفراغ متخالفة فلا يقع تخريمان على موضع واحد . فتوضع على الورق ويُكتَب في التخريم الذي يتخللها ثم تدار على وضع آخر وتعاد الكتابة وهكذا حتى تدور على الجهات الاربع فتمتلئ الاسطر لكن تأتي الكلمات متداخلة لا رابط بينها ولا يُفهَم لها معنى . ويكون عند المُرسَل اليهِ شبكة بالشكل نفسهِ فيفعل في قرآءة الكلمات كما فعل الكاتب عند كتابتها بعد ان يكون قد أُشعِر بالجهة التي بدأ منها والجهة التي ادارها عليها

واما المراسلة التلغرافية على هذه الطريقة فسنعود الى ذكرها في احد الاجزآء الآتية ان شآء الله